



الشعر الشعبي الجزائري بعد الاستقلال (عوائق وآفاق الدراسة)

Algerian folk poetry after independence (obstacles and prospects of study)

خالد بودينة *

مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو - الجزائر

boudinakhaled7@gmail.com

عزيز نعمان

مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو - الجزائر

naman.aziz@gmail.com

تاريخ النشر:

2025-06-03

تاريخ القبول:

2025-05-30

تاريخ الإرسال:

2023-08-16

ملخص: لم يسلم الأدب الشعبي الجزائري بعد الاستقلال من الصراعات السياسية والأيدولوجية التي عرفتها البلاد، في محاولة لفرض السيطرة على النتاج الأدبي ذي الحمولة الثقافية، والتي يمكن من خلالها الغوص داخل الأفراد والجماعات لأجل السيطرة عليها، سواء كان ذلك من طرف المؤسسة الحاكمة، أو من طرف النخبة المسيطرة على الوطن آنذاك.

فلم يكن للأدب الشعبي الحظ الكبير من الدراسة، خاصة مع منع السلطة البحث في التاريخ ورفض بعض العلوم كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع الذين من شأنهما الكشف عن عقلية الشعب وتاريخه وجميع ممارساته اليومية بما في ذلك فنون القول الأدبي، وهو الأمر الذي أدى بالأدب الشعبي والشعر الشعبي خصوصا- باعتباره الأقدر على التعبير لما يحتويه من موسيقى وإيقاع يسهلان حفظه- إلى البقاء على الرفوف أو أسنة الأفراد والجماعات، دون دراسة جادة وفقا لمناهج حديثة تتيح لنا الغوص فيه إلا قليلا مقارنة بالثلاث عقود الأخيرة، وهو الأمر الذي حاولت توضيحه في هذا البحث.

كلمات مفتاحية: الشعر الشعبي؛ السلطة؛ الأيدولوجيا؛ المناهج الحديثة؛ الأنثروبولوجيا.

* المؤلف المرسل

Abstract: After independence, Algerian folk literature was not spared the political and ideological conflicts that plagued the country. These attempts to impose control over culturally charged literary production, which could be used to delve into individuals and groups in order to dominate them, were carried out by the ruling establishment or by the elite controlling the country at the time. Folk literature did not receive much study, especially given the authorities' prohibition of historical research and their rejection of certain disciplines, such as anthropology and sociology, which could reveal the people's mentality, history, and all their daily practices, including the arts of literary expression. This led to folk literature, and particularly folk poetry—considered the most capable of expression, due to its music and rhythm, which facilitate its memorization—remaining on the shelves or on the tongues of individuals and groups, without serious study according to modern methods that would allow us to delve into it, except for a limited amount compared to the last three decades. This is what I have attempted to clarify in this research.

Keywords: folk poetic ; power; ideology; modern approaches; anthropology.

المقدمة: يشغل الأدب الشعبي الجزء الأكبر من الأدب العالمي بالنظر إلى تداوله بين الشعوب والأمم وبالنظر إلى غزارة إنتاجه وكثافته وتنوعه، وباعتبار أنه لا ينقطع ولا يضعف وهو متجدد دائما تتحكم فيه الممارسات الشعبية من لغة وعادات وتقاليده وأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية تنتجها الكثير من المتغيرات، وبالنظر إلى أن الشعوب دائما بحاجة إلى التواصل في كل مناحي الحياة بعيدا عن السلطة (سياسية، دينية، اجتماعية، ثقافية... الخ) التي غالبا ما تمارس دور الوصي والرقاب على الشعوب المحكومة، فإن هذا يوجد دائما مخاضا متجددا وولادة في كل لحظة لأنماط مختلفة من الخطاب، لا سيما الشعوب البسيطة التي مازالت تمارس الأساليب القديمة في خطاباتها بدرجات مختلفة من بلد لآخر، هذه الأساليب يخضع فيها المجتمع لسلطة الجماعة، إذ التقاليد والعادات تحكم تلك الشعوب أكثر من السلطة -بكل أنواعها- وإن كانت هذه الأخيرة لا تغيب دائما بأي طريقة من الطرائق فإنها لا تستطيع فرض الرقابة الدائمة على الأفراد خاصة في مجال فنون القول أو الأدب الشعبي الذي تنتجه الجماعة أو

تحافظ عليه، والذي من أبرز خصائصه أنه ينتقل مشافهة من جيل لآخر، لذلك فهو متغير دائما حسب الحاجة إلى التعبير عن أوضاع مختلفة ومتغيرة.

إن الأدب الشعبي مهما كان كثيرا أو قليلا تحت أي جنس أدبي فهو يزخر بحمولة ثقافية كبيرة وغنية تحمل في طياتها الكثير من الأنساق التي تمكنا من الغوص في عقلية قائله واستخراج الكثير من الأسرار، ولكنه يبقى دائما مفتقرا إلى الدراسة خاصة عند الشعوب المتخلفة وحديثة الاستقلال كالجزائر برغم غناها الكبير بمختلف أنماط القول الشعبي وفنونه، لذا وجب علينا نقض الغبار على هذا الفن الأدبي بمختلف أنواعه للكشف عن جمالياته الفنية والإبداعية التي أنتجت السياقات المختلفة التي مر بها المجتمع الجزائري عبر قرون من الزمن، مشكلة أنساقا ثقافية وفكرية كثيرة؛ وهذا العمل يتطلب جهودا كبيرة وعلوما مختلفة ومناهج دقيقة تمكنا من الغوص داخل النص، لذا يجب أن يكون هناك مختصون خارج ميدان اللغة والأدب لأجل الكشف عن خبايا النصوص وما تكنزه من أنساق مختلفة كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية بالإضافة إلى المختصين في اللغة والأدب لأجل الخروج بنتيجة أو محاولة مقارنة النصوص وفق آليات إجرائية مضبوطة لذا حاولت في هذا البحث الوقوف على أهم العوائق التي منعت البحث في ميدان الأدب الشعبي في الجزائر بعد لاستقلال، وأهم الجهود النبذولة على قلنتها لأجل دراسته، خاصة الذين وضعوه تحت مجهر المناهج الحديثة وفق مقاربات علمية دقيقة باستخدام الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وباقي العلوم وقد اخترت جنس -الشعر الشعبي- كجنس أدبي مستقل في الأدب الشعبي عينة في البحث طارحا الإشكالية التالية:

- ما العوائق التي وقفت ضد دراسة الأدب الشعبي في الجزائر؟ وكيف انعكس تطوّر السياقات الاجتماعية والسياسية والثقافية على الشعر الشعبي الجزائري؟

- ما هي أبرز المضامين التي يحملها الشعر الشعبي الجزائري وكيف قاربه النقاد والباحثون؟.

أولاً: تطوّر الأدب الشعبي في الجزائر: المحطّات الرئيسة والعوائق المنهجية

المعروف أن الأدب الشعبي هو إنتاج جماعي مشترك تتحكم فيه الكثير من المعطيات الثقافية والاجتماعية، التي يمكننا من خلالها فهم هذا الموروث الضخم وهذا ليس ممكناً طبعاً إلا إذا خضع للدراسة والتحليل والنقد وفق مناهج حديثة، تتوفر على أدوات لها القدرة على الغوص داخل النصوص واستكشاف الأنساق التي تشكله لمعرفة البنية التي يتركب منها، والظروف التي قيل فيها.

لكن هذه الدراسة صعبة نوعاً ما خاصة في العقود الماضية التي تلت الاستقلال مباشرة بالرغم من وجود بعض الاجتهادات الفردية هنا وهناك، لكنها لم ترق إلى مستوى الدراسة الأكاديمية ذات المناهج الحديثة، نظراً لعدم اهتمام الباحثين بهذا الميدان آنذاك وكذلك فقرهم المعرفي الذي يتيح لهم استخدام المناهج التي تساعدهم على الدراسة والبحث، بالإضافة إلى عدم اهتمام القائمين على إعداد برنامج تعليمي مخصص لهذا الأدب، ولكن الأمر صار متداركاً فيما بعد إثر الكثير من النقاشات والمؤتمرات التي أدت إلى تبلور أفكار جديدة، ورؤى حديثة تتيح الخروج من بوتقة التبعية والنظر إلى اللغة الفرنسية والعلوم الفرنسية خاصة الأنثروبولوجيا بأنها علم استعماري لا يجب أن نتعلمه وقد "أدرك السوسيولوجيون أهمية المقاربات التي تهدف إلى فهم العمل المتعدد الاختصاصات والاستماع الدقيق للثقافة وهي تتشكل وراحوا يطالبون "بانثروبولوجيا" كاختصاص ضروري لمقاربة المجتمع موضوع البحث"¹، وقد شهدت الأربع عقود الأخيرة جهوداً كبيرة في هذا الميدان إذ سعى الباحثون والأساتذة إلى العمل على التراث الشعبي.

إن الحديث عن الشعر الشعبي في الجزائر يأخذنا إلى الحديث عن نقطتين أساسيتين وهما: الأنثروبولوجيا بصفتها العلم الذي يدرس التجمعات الإنسانية والشعر يدخل ضمن الطابع الثقافي للأنثروبولوجيا، والنقطة الثانية هي الشعر نفسه بالنظر إلى لغته العامية التي قيل بها وكلتا هاتين النقطتين منعت الاهتمام بالشعر الشعبي في الجزائر في فترة معينة وإلى الآن بدرجة أقل، ولعل أكثر فترة لاقى فيها الشعر صعوبة كبيرة هي النصف الثاني من القرن الماضي باعتبار السياسة التعليمية الغالبة آنذاك والتي تعد الموجه الأول لعقليات الشعب والأفراد في تلك الفترة ، هذه السياسة سعت الى ترسيخ عقلية الثقافة الواحدة والتي اطلق عليها مصطلح الثقافة الرسمية وهي "الثقافة التي تحصلت عليها نخبة من المجتمع بواسطة عدة وسائل منها الكتاب وهي ثقافة مكتوبة لا يتحصل عليها إلا من يعرف القراءة و الكتابة"² وتسمى أيضا ثقافة النخبة المعتمدة من طرف المؤسسة الحاكمة والتي يعزى إليها الرقابة على كل ما ينتج من خطابات نقدية وثقافية.

لذلك يجب علينا قبل أن نتكلم عن الشعر -كما ذكرنا- أن نشير إلى الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر بعد الاستقلال والتي شهدت توقفا شبه تام عن العمل والنشاط لأسباب مجهولة، والتي كان من شأنها اكتشاف المجتمع والكشف عن الكثير مما يجهله المثقفون والعامّة لأنها كما جاء في قول مارغريت ميد في حديثها عن الأنثروبولوجيا: "علم له مناهج واضحة وثابتة والقواعد التي تحكم البحث الميداني واحدة، وعلى الباحث أيا كانت هويته أن يبتعد عن العامل الشخصي في أي مكان كان"³، وهذا ما عانت منه الدراسات الأنثروبولوجية عامة بما فيها الشعر الشعبي في الجزائر خاصة سنوات السبعينات "كما دارت النقاشات حول وهم الموضوعية ودور الباحث وموقفه السياسي والديني والوجداني من موضوع بحثه"⁴، وهذا ما أدى _ربما_ إلى قطيعة شبه تامة مع

الدراسات الأنثروبولوجية لأن هذه الثلاثة كما ذكر بوحبيب (السياسة و الدين و الوجدان) تعد محركا مهما و سلطات تحكم الباحث مهما كان محايدا.

هذه الأسباب وغيرها جعلت الباحثين يبتعدون عن البحث في مجال الشعر الشعبي، لضغوطات من المؤسسة السياسية كما -يرى الأستاذ بوحبيب- التي "نظرت دوما إلى العلوم الإنسانية عامة والأنثروبولوجيا على وجه الخصوص بنوع من الحذر فالأنثروبولوجيا في عيناها هي ذلك المشاغب (معرفيا)، الذي يريد أن يعرف كل شيء حوله"⁵ وهي مخرب أعشاش العصفير على رأي كلود ليفي شتراوس، ولهذا فإن الموقف الرسمي من المؤسسة الحاكمة في الجزائر هو الذي تحكم في ميدان البحث في الشعر الشعبي الذي ينتمي إلى ميدان الأنثروبولوجيا في طابعها الثقافي، وهذا طبعا استنتاج مما سبق من الأقوال المذكورة، وقد تبلور هذا الموقف في اتجاهين رئيسين على -حد تعبير عبد الحميد بورايو- بعد الاستقلال "كان لهما دور كبير في قيادة وتسيير حركة التحرر الوطني وهما: الحركة الإصلاحية الدينية من جهة والتوجه الثقافي والتقني المفرنس"⁶، واللذين بقيا يوجهان الحركة الثقافية بعد الاستقلال بدعم من السلطة حسب المنفعة التي تقتضي إبراز أي توجه يخدم المصالح السياسية، في حين تم إذكاء الصراع بينهما في الوقت نفسه من طرف المؤسسة السياسية التي عادة ما تحاول خلق مصطلح يناسبها حول الثقافة التي تسعى لتكريسها في المجتمع حيث يثير الحديث عن المفهوم السياسي للثقافة حديثا آخر عن مفهوم النقد السياسي الذي تحدث عنه تيري إيغلتن في نهاية كتابة نظرية الأدب "إذا ما تم تغيير كلمة سياسي بكلمة ثقافي أحرزنا تركيب النقد الثقافي الذي يهتم بالممارسات الثقافية التي تشمل الخطابات الدالة على شاكلة الأفلام السينمائية والثقافة البصرية"⁷

كلا الاتجاهين لم يكن له اهتمام بمواد الثقافة الشعبية، فحركة الإصلاح الديني المحافظ أرادت رد الاعتبار للغة العربية الفصحى وركزت على التوجه الأخلاقي المستمد

من تعاليم الدين الإسلامي، وسعت إلى جعل اللغة العربية نصب اهتمام المنظومة التربوية، أما التوجه الثاني "فقد انشغل رجاله بقضايا التنمية وبناء الاقتصاد اعتمادا على النقل الحرفي للمنظومة التقنية العربية"⁸ وهذا التوجه يركز على الجانب التكويني المهني والذي أغفل بدوره الجانب الثقافي في سنوات الستينات، وقد انتهت الدراسات بإنشاء هيئة وحيدة ظلت تعمل في جانب الثقافة الشعبية والانتروبولوجيا والاثنولوجيا، وهي "مركز الأبحاث في الانتروبولوجيا وفي عصور ما قبل التاريخ والاثنولوجيا" الذي تأسس سنة 1953م، وظلت الثقافة الشعبية منحصرة في مؤسسات صغيرة كالإذاعة الوطنية التي استحدثت بعض البرامج التي تعتني بالموروث الشعبي الشفوي مثل الشعر الملحون والأمثال الشعبية والأغاني والبوقالات"⁹، بالإضافة إلى المكاتب السياحية التي كانت تلعب دورا هاما في التعريف بالموروث الشعبي برعاية وزارة الثقافة، هذه المكاتب كانت همزة وصل بين الدارسين وبين أهل المناطق التي يذهبون إليها، ولم يتعد البحث في الموروث الثقافي في هذه الفترة المهرجانات والطابع الفولكلوري والنشاطات الثقافية. ومع بداية السبعينات عرفت الجزائر "تطبيق التوجيهات السياسية والأيدولوجية التقدمية التي تبنتها القيادة السياسية وقتئذ في ميدان التعليم الجامعي والبحث العلمي"¹⁰، فأعيد النظر في البرامج التعليمية ومناهج التدريس بما يتناسب مع إستراتيجية السلطة الحاكمة، وتم إلغاء مادة الأنتروبولوجيا وهي الإطار الوحيد الذي كان يجعل من مواد الثقافة الشعبية ميدان بحثه واستبدلت بمادة الأدب الشعبي الذي كانت دراسته دراسة ثانوية في إطار اللغة العربية وأدبها بفعل التوجه الإسلامي الإصلاحى العربى على الجامعات آنذاك ، هذا التوجه الذي شهده وعملت على بلورته الأنظمة الحاكمة في الدول العربية في تلك الفترة، وكان يمثل معظم الذين كانوا تابعين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ذوي الطابع الإسلامي والأساتذة الأزهريون الذين كانوا يشرفون على التعليم في الجزائر آنذاك "هكذا يمكن القول بصفة مجملّة أن سنوات السبعينات

عرفت بدورها انحصارا للبحث العلمي في ميدان التراث الشعبي¹¹ ويمكننا تبرير هذا الجمود في البحث في التراث الشعبي إلى سببين في فترة السبعينات وهما التيار المحافظ الذي كان يرى اللغة العربية الفصحى والتراث الإسلامي النموذج الأعلى الذي يجب دراسته والتيار التقدمي الذي كان يتجه نحو التصنيع والتكنولوجيا، هذا الاستنتاج نلمسه من خلال كلام كلودين شولي في خضم حديثها عن دور المثقفين إذ تقول: "لم يؤد السوسيولوجيون ولا باقي المثقفين الدور الريادي في مرحلة الأزمة المتعددة الأوجه التي عاشتها البلاد ولم يقترحوا تفسيرات مميزة ولا حلولاً"¹²، وهذا ما عمق الهوة بين الأدب الشعبي ودراسته بسبب ضغط المؤسسة الحكومية وفرض الرقابة على البرامج التعليمية. أما في الثمانينات لم يتغير الحال كثيرا سوى ظهور الحركة البربرية التي كانت لها أثر فعال على الموروث الثقافي في الجزائر، وهذا التيار "تأسس على المطالبة بالتكفل الرسمي بالثقافة المحلية بلهجتها البربرية المختلفة، وهي طبعا الحاملة لجزء هام من الثقافة الشعبية"¹³، وقد مثل هذا التيار الحركة الثقافية البربرية فكان من نتائج نشاط هذه الحركة إنشاء هيئة رسمية هي "المحافظة السامية للغة الأمازيغية" وكان هدفها تنشيط البحث في الثقافة الأمازيغية وترقيتها باعتبارها ثقافة شعبية شفوية أصيلة منتشرة في الوطن كله، وباعتبار أن اللغة الأمازيغية هي اللغة الأصل في الجزائر والمغرب الإسلامي مقارنة بالعربية التي تعد رافدا جديدا، هذا بالنظر -طبعا- إلى التسلسل التاريخي لتواجد السكان وظهور اللغات في شمال إفريقيا.

ويمكننا أن نجمل عدم الاهتمام بالموروث الشعبي في الجزائر عامة والشعر خاصة إلى ثلاث عوائق على حد تعبير (حميد بوحبيب) وهي:

1- **العائق السياسي:** وقد وضّح الكاتب قائلا: "تحيل بكلمة سياسي هنا إلى المؤسسة السياسية القائمة على رسم السياسات الشاملة والمسارات الكبرى للبحث العلمي في البلاد"¹⁴ وهي السياسة التي كانت تنتظر للأنثروبولوجيا على أنها "علم استعماري

مشبوه¹⁵، يكرس الثغرات الجهوية ويهدد الوحدة الوطنية وفي حقيقة الأمر أن هذه النظرة ما هي إلا غطاء لممارسة سياسة معينة، تم رفض الأنثروبولوجيا لأن مجال بحثها يكون أكثر دقة في هذين العلمين و الأدب -خاصة الشعر- يتسم بحمولة كبيرة فيهما ويلعب مرات دور المؤرخ لذا تفرض الرقابة على النصوص إلا النصوص التي تخدم السلطة و تمدح الحاكم فيجزي العطاء عليها لقائلها؛ لأن الشاعر يعلن الطاعة "من خلال إعلان الخضوع والولاء والتوسل وتقديم هدية -أي القصيدة ذاتها- في عملية طقسية واضحة"¹⁶ وهذا ما تطلق عليه سوزان ستيتكيفيتش مصطلح (تبادل الهدايا) بين الشاعر والسلطة فلا تخرج القصيدة عن موضوع المدح وهو الأمر الذي يحبه ويريداه الحاكم؛ "فالإستراتيجية التي ترسمها المؤسسة فضلا عن كونها هي التي تمول مشاريع البحث هي التي تحدد النظرة إلى حقل معرفي ما"¹⁷، وعلى هذا فالتدخل السياسي في الأمور العلمية هو الذي يضيع الكثير من الدراسات التي من شأنها أن تتقدم بالدراسات إلى الأمام، ويعد معيقا بارزا في الكثير من العلوم وعلى هذا "فالخطاب الرسمي الذي يبنى اليوم أكثر من أي وقت مضى على قانون عنيف (اللغة والدين والوطن) يحدد لنفسه (ظاهريا) سلسلة من الثوابت التي لا تقبل النقاش ويرسم معالم الهوية دائما بالاستناد إلى التوازنات الضيقة التي تفرضها اللعبة السياسية وهو خطاب إقصائي بالضرورة"¹⁸، لا يمكننا إذا تبنيها أن نتقدم في أي دراسة كانت أو حقل علمي، وهو ما شهدته السياسة العامة في تلك الفترة وظهر بوضوح خلال المؤتمر الدولي الرابع والعشرين للسوسيولوجيا المنعقد في الجزائر خلال شهر مارس؛ حيث تمت بلورة حوصلة المعارف حول الجزائر وتم رفض المصطلحات الأخرى لكونها مرتبطة بالسياسة الاستعمارية وبقي حقل السوسيولوجيا فقط الذي حاول تقريب المجتمع لدراسة تلائم ما يقرره المنهج العام الذي تسيره المؤسسة المتحكمة في أدواته، وقد تم الحفاظ على

مصطلحي الانتوغرافيا لوصف الممارسات الاجتماعية، والإثنولوجيا لمقارنة وتفسير هذه الممارسات.

لهذا؛ فالعائق السياسي مرتبط دائما بطبيعة الدولة الأم، أو الدولة المركزية التي انبنت منذ الاستقلال على مبادئ اللغة الرسمية الواحدة والثقافة المهيمنة الواحدة. وهو إقصاء لأي طرف يهدد وجودها واستمراريتها وكبت لحرية التفكير والكتابة على حساب العلم دون العمل على استراتيجية واضحة تجعل العلم والحقيقة في المقام الأول لأن الأنثروبولوجيا ليست البحث في السمات الثقافية التي ربما اشتغلت في السابق في حالة صافية وإنما في فهم نظام الرموز المادية والثقافية التي يحاول الجزائريون اليوم في ظله تشكيل حياتهم بإيجاد معنى له.

2- العائق الديني: يقصد به كل ما هو مقدس في نظر الحكومة أو الشعب "وإذا اعتبر القرآن الكريم المثل الأعلى والنموذج الأبلغ والأرقى لهذه اللغة المكتوبة اكتسبت بالتجاوز شيئا من قداسته، وأصبح الانحراف عنها خروجاً عن الدين ذاته"¹⁹ ، فأخذت اللغة العربية الفصيحة شيئا من القداسة لارتباطها بالقرآن وأصبح ينظر إليها بعين الدين لا بمنطق التطور والتعدد اللهجي الذي يفرضه الواقع والتاريخ، وهذا الأمر في نظر من تبنيه لا ينبغي أن يخوض فيه أحد وهو ما يعيق البحث في العلوم " كلما تدخل المقدس لكبح الجماع السياسية والعلمية والتضييق عليها بحجة النقاء والتعالى المطلق"²⁰؛ هذا المقدس يكون في غالب الأحيان أداة للسلطة وضمانا لشرعيتها فيكون بمثابة تحالف، "لا يدع مجالا لأي أمل بأن الرؤية المؤسسة للفعل السياسي والاجتماعي والمعرفي هي هذه الرؤية لا غير، مما يجعل المقاربة الأنثروبولوجية مجرد سباحة على الشاطئ"²¹، ولا يمكن في أي حال الخوض فيما هو ثابت بالوراثة ومحاولة دراسته إذا كان مسلما به وبديهي لا يمكن تجاوزها والبحث فيها والخوض في خلفياتها ، تمنع أي تأويل مهما

كان مستندا إلى قواعد علمية ومنهجية تبحث عن الحقيقة وتصل إليها في غالب الأحيان.

3- العائق المعرفي: الثقافة "تشمل الفنون الجميلة والأدب والبحث في مواد المنهج التعليمي للدراسات الإنسانية الأعلام السوداء ومجال الثقافة الشعبية ذي الحدود الفضفاضة حد الغموض"²² لذلك فالثقافة الشعبية بتشعبها وغناها بمكوناتها وروافدها المختلفة والضاربة في عمق المجتمع تتطلب تخصصا ودراية كبيرين ونقصد هنا بالعائق المعرفي التخصص في ميدان الأنثروبولوجيا التي لها الحق المطلق واليد الطولى في البحث في الموروث الثقافي المادي و اللامادي في البلاد، لهذا فإن الأنثروبولوجيا هي وحدها التي يمكنها الخوض في مثل هذه الأبحاث إضافة إلى النقد الثقافي فهما "يحاولان تجاوز المفهوم الجمالي للممارسة الثقافية والتركيز على المحتوى السياسي الذي ليس طريقا ولا نظاما في الحكم"²³ لكن هذا التخصص لا زال قيد الإنشاء ف: "المتأمل لشبكة الباحثين التي تعكف اليوم على البحث الأنثروبولوجي سيجد بأن ملامحهم العلمية ليست بالضرورة ملامح التخصص المطلوب، فالغالبية منهم جاءوا من حقل علم الاجتماع الثقافي والحضاري، وآخرون من الأدب واللسانيات وبعضهم من علم النفس"²⁴، وكل هذه التخصصات لا تملك الأدوات الكافية للدراسة الأنثروبولوجية والباحثون هنا ليسوا متخصصين إنما يعدون مجرد هواة مولعين بنبش الموروث الثقافي. وأكثر من كان لهم الحضور الكبير في مثل هذه الدراسات هم السوسيولوجيون لكن هل برزت سوسيولوجيا كفيلة بفهم هذا التغيير؟ "لا أظن ذلك وبالأحرى هل كان هذا ممكنا وضروريا ومع ذلك أنجزت دراسات جادة ومؤسسة، وحتى وإن قوبلت باحتقار من الخارج مثلما تجاهلتهنا وسائل الإعلام التي كان بإمكانها أن تضمن نشرها"²⁵.

ثانيا: خطاب المؤلفات النقدية حول الشعر الشعبي: قراءة في المضامين والمنهج

أخذ الشعر الملحون الديني حظا وافرا في الشعر الشعبي الجزائري، وهذا ما جعل المهتمين بهذا الميدان يهتمون به وبأشكاله وقضاياها، وهو ما فعله عبد القادر فيطس في كتاب (الشعر الملحون الديني الجزائري قضايا الموضوعية وظواهره الفنية)؛ لأن هذا الشكل يمثل الدين والهوية والمعتقد "فالشعر الملحون الديني ليس إلا ظلالة لفكر الإسلام وقضاياها وصدى لوجدان الجزائريين وانعكاسا للظروف التي عاشوها في فترة من أعسر الفترات في تاريخهم"²⁶، إذ تعد فترة الاستعمار الأكثر تأليفا وكتابة في الشعر الملحون الديني وذلك للضعف الذي أصاب الجزائريين جراء الاستعمار وتدهور الحالة الاجتماعية والثقافية عموما فلجأ الشعراء إلى التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين وحتى كتاب القرآن وصوره لأجل الخروج من الضائقة والدعوة إلى الجهاد والتذكير بغزوات النبي وبطولات الصحابة والفتوحات الإسلامية، وهذا ما يحدث غالبا عندما تشعر الشعوب بالقهر فيكون الدين هو الملجأ مثلما حدث في فترة ضعف الخلافة الإسلامية وظهور السير الشعبية تذكيرا بسيرة الأبطال ودعوة إلى التحرر، "وقد كان لهذا الحضور أسباب تتعلق خاصة بالسياق التاريخي والحضاري الذي تطور في ظله هذا الشعر"²⁷ فأنتج لنا هذا الوضع نصوصا كثيرة تحمل سمات أدبية خاصة بها، دفعتها السياقات المختلفة للخروج إلى الواقع لأغراض مختلفة لذا توجب دراسته "للكشف عن تأثير الدين وقضاياها ونقف عنده بالدراسة والتحليل، ونستقصيه في مظانه الكثيرة من تاريخية وأدبية وفنية"²⁸ دراسة شاملة تقف عند أهم النقاط والقضايا التي يثيرها هذا النوع من الشعر الملحون ودراسة النمط الديني في القصيدة الملحونة، وخاصة في فترة الاستعمار أين توجب على الشعراء أن يميلوا إلى الجانب الديني والتذكير بواجب الجهاد وذكر الصالحين والأولياء والأجداد في محاولة لاستنهاض الهمم والوقوف في وجه الاستعمار هذا من جهة، ومن جهة أخرى" الكشف عن الخصوصيات اللغوية والإيقاعية

المميزة لزمن النص ومكانه والبيئة التي ولد فيها"²⁹، وهذا يعني دراسة النص وفق مستويين هما: التحليلي والفني، في محاولة الدخول إلى السياق الذي قيل فيه أي الخروج من النص "هذا السياق الذي اتسم بالهيمنة الفرنسية التي ضربت حصارا شديدا على كل منابع الهوية الجزائرية التي يعد الدين الإسلامي أحد مكوناتها الحيوية الأساسية"³⁰، لذا كان لزاما على الشعراء تضمين أشعارهم المعاني الدينية لأنها تعد نافذة ثقافية مهمة لها أثرها في النفوس قبل النصوص.

وهذه الدراسة تحتاج إلى منهج متكامل من أجل الكشف عن خبايا النص من الداخل والخارج وهو الأمر الذي عمل به الكاتب خلال دراسته، "ولتحقيق هذا المبتغى والغاية المرجوة كان لابد من الاعتماد على المنهج المتكامل الذي يجمع بين عدة مناهج...، فتعاملنا مع المنهجين التاريخي والوصفي في تتبع مصادر الثقافة الدينية في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي"³¹؛ لأن النظر إلى النصوص بعين واحدة من جانب أدبي لا يتيح لنا معرفة الظروف التي أنتج فيها النص بظاهره ومضمرة، وهذا ما يفرض علينا اتباع المناهج الحديثة ومحاولة إسقاطها على الانتاج الأدبي خاصة الشعبي منه لكثرة روافده، وقد نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا وربط تلك الفترة بالجانب النفسي والتراكمات التاريخية والدينية في الفكر الإسلامي أو بالأحرى في تفكير المسلمين أنفسهم في مثل هذه الأزمات، ولهذا على الدارس أن لا يكتفي بالنقد الأدبي فقط، وإنما الاستعانة بباقي العلوم لفهم هذا النوع من الشعر "ذلك أن العلاقة الحقيقة المعاشة، التي يتبادلها المسلمون المعاصرون مع النصوص، لم تحظ في السابق إطلاقا بتحريات سوسيولوجية معمقة"³² وهذا ما يشير إليه أركون في حديثه عن الإسلاميات والدراسات الإسلامية في كتابه (تاريخ الفكر العربي الإسلامي). هذا بالإضافة إلى "المنهج التحليلي اعتمدناه في الدراسة التحليلية التي بموجبها نتبعنا بالتفصيل أغراض وموضوعات الشعر الملحون الديني كبناء متكامل العناصر والوظائف"³³ و"دراسة الجانب الصوتي في الكلمة أوجب

علينا الإحاطة بالمنهج الإحصائي للوصول إلى نتائج تقديرية³⁴، "أما دراسة الصورة الشعرية والموسيقى الشعرية استلزم التعامل مع المنهج الفني الذي ساعدنا في كشف الجوانب الجمالية لهذا النوع من الشعر"³⁵. ومن خلال هذه الأقوال للأستاذ عبد القادر فيطس نلمس أن هذه الدراسة شاملة للشعر الديني الملحون باعتماده على كل المناهج الحديثة من أجل نقد وتحليل النصوص.

وبالنسبة لكتاب: **العجري الأخير: دراسة نقدية تحليلية لشعر (سي محند أو محند) لحמיד بوحبيب** يظهر لنا جلينا من العنوان نية الكاتب في تطبيق الدراسة الحديثة لأشعار سي محند أو محند بالنقد والتحليل الممنهج وفق قراءات حديثة تفتح لنا أفق الدراسة للشعر الشعبي وفهمه وتحليله في ضوء المناهج الجديدة في الدراسات الأدبية الحديثة وإدخال الشعر الشعبي مخبر الدراسات الأكاديمية؛ لأن "الثقافة الشعبية الأمازيغية بشكل عام عانت قرونا من التهميش والنسيان ولم تبدأ البحوث الأكاديمية فيها إلا منذ زمن قصير يضاف إلى ذلك انعدام جسور التواصل بين اللغة العربية والثقافة الأمازيغية على الصعيد الأكاديمي"³⁶، هذا الإشكال مطروح في الكثير من الدول العربية بين الأكاديميين، إذ النظرة إلى اللهجات العامية غالبا ما تكون نظرة احتقار من طرف النخبة لإيديولوجيات مختلفة كل حسب رؤيته للغة العربية واللهجات المحلية أو لغة الأقليات المنتشرة في كثير من المناطق، وأنها تشكل خطرا على العربية الفصحى على الصعيد المحلي والعالمي، والحقيقة "أن هذه اللهجات المخصبة المعاصرة لروح الشعوب العربية والمتولدة من تعددها العرقي والديني واللغوي والثقافي لم تلبث أن صنعت فنونها اللغوية بمستوياتها المختلفة، فهي لا تعتبر مجرد حالات تدهور وتدن للغة الفصحى كما يتوهم سدننتها ... هي لهجات شرعية المولد والنشأة والتطور لها كل الحقوق مثل اللهجات القبلية القديمة"³⁷، وهذا ما لا يتقبله الكثير من النخبة والمتقنين الذين يعبر عليهم صلاح فضل بمصطلح (السدنة)، في حين أن الثقافة الشعبية أكبر

من أن تسعها لغة رسمية أو فصحي لتشعبها و وجود آلاف اللهجات عبر العالم، التي للأسف لا تكتب وإنما هي شفوية فقط، ما عدا العقود الأخيرة التي عرفت نوعا ما اهتماما مميزا بمواد الثقافة الشعبية ومنها اللغة بتدوينها و دراستها.

وقف الكاتب (بوحبيب) في دراسته هذه على أهم النقاط المتعلقة بالشاعر والنص، فقد زوج بين المناهج السياقية والنسقية بما يناسب كل فكرة وكل موضوع متعرضا لها بالنقد والتحليل ببراعة يلمسها القارئ أثناء التجوال بين طيات الكتاب، وتطبيق المناهج الحديثة على الأدب الشعبي هو ما يفتح باب الدراسة الجادة و"سلاحظ القارئ أننا لم نقتصر على توظيف منهج واحد، فقد زوَجنا بين مبادئ منهج التحليل النفسي، والقراءة الأنتروبولوجية وكل تقنيات المناهج الحديثة التي توسمنا فيها الدقة"³⁸. وهذه التقنيات تساعد على فهم النص من الداخل والخارج، لذلك فإن هذا الكتاب يعد بحق عملا يستدعي الثناء، لأنه باكورة الدراسات الحديثة التي تناولت الشعر الشعبي بهذه الطريقة، ومهما يكن من أمر فهذه الدراسة هي خطوة على الدرب وإن لم يحالفها الصواب فهي على الأقل تفتح بابا عملاقا لم يفتح من قبل في الأدب العربي"³⁹

خاتمة: يمكننا القول إن الأدب الشعبي عموما والشعر خصوصا في الجزائر مازال خصبا برغم كل الجهود المبذولة في دراسته منذ الاستقلال لحد الآن، ويتضح ذلك من خلال ما أوردناه في بحثنا هذا لأنه:

- لا يمكننا إنكار الدراسات في هذا الميدان منذ ما يفوق خمسة عقود من الزمن، ولكن البحث لا يزال ناقصا كثيرا بالنظر إلى الموروث الضخم الذي أنتجته الجماعة أو الفرد، وهذا نابع من التعدد اللغوي و العرقي في الوطن، ما ينتج عنه تنوع ثقافي وتداخل بين مختلف الايديولوجيات والثقافات الأصيلة والرافدة، بالإضافة إلى كبر المساحة التي جعلت السكان يختلطون مع غيرهم على الحدود المجاورة فنتج عنه تأثير وتأثر، وهذا يلاحظ من خلال التشابه في اللغة والمواضيع وأنماط القول في كل أجناس الأدب

الشعبي، تشابه في البنية الداخلية والخارجية للنصوص التي تتخر بحمولة معرفية و ثقافية كبيرة أنتجت لنا إبداعا أدبيا يحمل في طياته هوية الفرد الجزائري، ولكن:

- هذه الحمولة لا يجب أن تبقى مجرد ذاكرة أو نصوص على الورق وإنما يجب أن يكون هناك عمل جاد وكبير من أجل الوقوف على مختلف الأنساق الثقافية الظاهرة والمضمرة داخل النصوص، وهذا لن يكون سهلا ولن يكون متاحا أيضا إلا بتكاثف جهود الباحثين بتطبيق المناهج الحديثة على النصوص وإخضاعها لباقي العلوم الإنسانية الأخرى، لأن الأدب ما هو إلا نتاج لممارسات شعبية أو فردية ذات حمولة ثقافية ضخمة تتيح لنا معرفة عقلية الأفراد والجماعات والوقوف على أهم مميزات الشعوب وتاريخها الحضاري والاجتماعي وهذا لا يكون إلا بـ:

- إخراج الشعر الشعبي من دائرة المشافهة والشعبية وإدخاله مخابر التحليل الأكاديمي، كما فعل الكثير من الباحثين مثلما أشرت في هذا المقال من خلال الكتب التي أوردتها مع وصف لمضامينها والمناهج التي اعتمدها أصحابها في دراستهم.

- الوقوف على أهم الفترات التاريخية للبلاد من خلال النصوص التي تعد وثيقة تاريخية لحقب زمنية معينة خاصة مراحل الحروب والتوترات والصراعات الداخلية والخارجية، لأن الظروف والبيئة يلعبان الدور الأهم في إنتاج النصوص.

- عدم التفريق بين مختلف اللهجات واللغات الموجودة لدى الجماعات والتي تشكل هويات متعددة تساهم في إنتاج أشكال مختلفة من الأدب، لأن اللغة تصنع الفكرة، وتعدد اللغات ينتج تعدد الأفكار وبالتالي نجد أنفسنا أمام تعدد في النصوص مما يتيح لنا سعة في الدراسة.

- ضرورة تطبيق مناهج النقد الحديثة كالمقاربات الأنثروبولوجية والثقافية التي لها القدرة على التوغل داخل النصوص لامتلاكها أليات إجرائية تمكنها من الكشف عن خبايا العمل الأدبي.

قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي، مقارنة أنثروبولوجية، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ط1، 2009.
- جمال العيفة: الثقافة الجماهيرية، منشورات جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، 2002.
- سوزان ستيتكيفيتش: القصيدة والسلطة الأسطورة، الجنوسة، المراسم في القصيدة العربية الكلاسيكية، ترجمة وتقديم: حسن البنا عز الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010.
- صلاح فضل: شعر العامية من السوق إلى المتحف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2019.
- طارق بوحالة: أسس النقد الثقافي وتطبيقاته في النقد العربي المعاصر، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2021.
- عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط1، 2007.
- عبد القادر فيطس: الشعر الملحون الديني الجزائري-ج1، دار سحنون للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، تر: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط3، 1998.
- آدم كوبر: الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط1، 2008.
- صلاح فضل: شعر العامية من السوق إلى المتحف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2019.

• **المقالات:**

-كلودين شولي: أنثروبولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ التفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين، مجلة إنسانيات، عدد 27، جانفي- مارس، 2005.

الهوامش والإحالات

¹-كلودين شولي: أنثروبولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ التفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين، مجلة إنسانيات، عدد 27، جانفي- مارس، 2005، ص 7.

²- جمال العيفة: الثقافة الجماهيرية، منشورات جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، 2002، ص 42.

3 - حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي، مقارنة أنثروبولوجية، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ط1، 2009، ص 77.

4 - المرجع نفسه، ص 77.

5 - المرجع نفسه، ص 79.

6 - عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، ط1، 2007، ص 27.

⁷- طارق بوحالة: أسس النقد الثقافي وتطبيقاته في النقد العربي المعاصر، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2021، ص 24.

8 - حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي، مقارنة أنثروبولوجية، مرجع سابق، ص 28.

9 - المرجع نفسه، ص 28.

10- المرجع نفسه، ص 29.

11 - حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي، مقارنة أنثروبولوجية، ص 30.

¹²- كلودين شولي: أنثروبولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ التفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين، ص 7.

- 13 - كلودين شولي: أنثروبولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ إتقانة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين، ص 31.
- 14 - حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي، مقارنة أنثروبولوجية، مرجع سابق، ص 79.
- 15 - المرجع نفسه، ص 79.
- 16- سوزان ستينكيفيتش: القصيدة والسلطة الأسطورة، الجنوسة، المراسم في القصيدة العربية الكلاسيكية، ترجمة وتقديم: حسن البنا عز الديم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص79.
- 17 - المرجع السابق، ص 80.
- 18 - حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي، مقارنة أنثروبولوجية، ص 80.
- 19-صلاح فضل: شعر العامية من السوق إلى المتحف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2019، ص8.
- 20 - حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي ، مقارنة أنثروبولوجية، ص 84.
- 21 - المرجع نفسه، ص 85.
- 22-أدم كوبر: الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط1، 2008، ص 248.
- 23- طارق بوحالة: أسس النقد الثقافي وتطبيقاته في النقد العربي المعاصر، ص24.
- 24 - حميد بوحبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي ، مقارنة أنثروبولوجية، ص 86.
- 25- كلودين شولي: أنثروبولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ إتقانة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين، ص 6.
- 26 - عبد القادر فيطس: الشعر الملحون الديني الجزائري- ج1، دار سحنون للنشر والتوزيع، الجزائر 2007، ص 08.
- 27_ أحمد قنشوبة: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، ط1، 2009، ص 429.

- 28 - المرجع نفسه، ص 08.
- 29 - المرجع نفسه، ص 10.
- ³⁰ - أحمد قنشوبة: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، مرجع سابق، ص 429.
- 31 - عبد القادر فيطس : الشعر الملحون الديني الجزائري، مرجع سابق، ص 11.
- ³² - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، تر: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط3، 1998، ص52.
- 33 - المرجع نفسه، ص 11.
- 34 - المرجع نفسه، ص 11.
- 35 - المرجع نفسه، ص 11.
- 36 - حميد بوحبيب: الغجري الأخير، دراسة نقدية تحليلية لشعر (سي محند أومحمد)، مرجع سابق ص 7.
- ³⁷ - صلاح فضل: شعر العامية من السوق إلى المتحف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2019، ص 11.
- 38 - حميد بوحبيب: الغجري الأخير، مرجع سابق ص 12.
- 39 - المرجع نفسه، ص 12.